مَشي المُقيّد

محمود طرشونة

كلّ شيء على أحسن ما يُرام : الهياكل المعدنيّة مشدودة إلى بعضها البعض بإحكام، رافعات الأثقال تتحرّك في جميع الإتجّاهات محدثة دويّا هائلا، قوالبَ الإسمنت المسلّح تنتصب بدقّة في أماكنها، فتتشكّل الجدران شيئا فشيئا ، ويمتلىء الفضاء بغرف النّوم، وبيوت الإستحمام، وقاعات الجلوس، وبالشرفات النّاتئة، ويتحوّل ما كان على الورق مجرّد أشكال هندسية وأحلام إلى واقع معماريّ محسوس يروق النّاظر ويُدخل البهجة في قلب سعيد الشابيّ، الباعث العقاريّ الذي جعل من هذه العمارة الأولى بذرة لكلّ مطامحه ومطامعه، وسخّر لتشييدها كلّ ما يملك... وما لا يملك . أرادها رمزا ومنطلقا لحيّ سكنيّ متكامل عشّش في خياله زمنا، لازمه في يقظته وفي نومه حتّى كاد يفنيه. استعمل للشروع في إنجازه شتّى الوسائل: فاقترض وباع، وأطعم وسقى، وتملّق وخادع.. وانخدع، وكبا ونهض ثم سقط، ثم نهض عازما، شرسا، متخاذلا أحيانا، مريدا دوما، مُشاكسا، مُصالحا، يدفعه الطّموح ولا تثنيه العقبات، يمشي.. يمشي ولا يتعب، يصيبه الفتور حينا من الدّهر، فيتراءى له مثال حيّه بعماراته ومتاجره وأنواره وأشجاره فيزول الإعياء ويواصل السّير ، دوما إلى الأمام، دوما إلى الأعلىَ فتتحوّل الرّؤيا إلى رؤية، وتمرّ أمامه مشاهد الغُرف والدّكاكين والحدائق فيصيح في عمّاله، ويحثّهم على مزيد الجهد، ساعيا إلى زرع أشواقه في نفوسهم، فيهدّد، ويُغري، ويطرد، ويشتري ...

كلّ شيء يبدو على أحسن ما يُرام : سعيد الشّابيّ يصول صَوْلته، ينهر ويدفع، يحثّ البنّائين على البناء، والعمّال على الإسراع، يتحرّك مثل رافعة الأثقال في جميع الاتجّاهات، يمنع التّدخين وقت العمل، يحجّر شرب الشّاي

في الحظيرة، يحرص على اختصـــار حصّة الغَدَاء. يمشي .. يمشي ولا يتعب، والجدران أمامه تتصاعد، والسّقوف تنتصب، والنّوافـذ تتشكّل ، والأعـوان يعملون في صمت... أو يكادون ...

لا يُسمع لهم صوت، لكنّ الكـلام يتلجلـج في الصّدور، يمين الأخـرس في صدره. ويا هول ما يتلجلج في الصّدور. منْ يُمكنه أن يبوح بـما يضيق بـه الفؤاد؟ أعلم أن الأجر منقـوص، وأن الإهـانـة مفـروضـة، لكن مـا حيلتي والصّبية في حاجة إلى الرّغيف؟

كيف السبيل إلى المأكـل والملبس والمسكن والمـدارس والمـواسم والأعيـاد بأجر أدنى من الأجـر الأدنى؟ لا نقـاش في المـوضـوع : الخيـار واضـح : الامتثال أو الرّحيل لكن إلى أين؟ أبواب الرّزق قد انسدّت منذ أمد طـويـل، والمحظوظ من كان مثلي يشتغـل . هـذا مـا استقـرّ في أذهـان العـديـد من الأعوان. ويوم أشرت عليهم بالتوقّف عن العمل تعبيرا عن غضبنا تظاهـروا بالموافقة لكنهم انخذلوا ساعة الجد. كلّ منهم انتصب أمامه الشبـح المخيف، شبح البطالة. بقيت وحدي صامدا. فدفعت الثّمن غاليا. لكنّي بقيتُ هنـا، في أعلى نقطـة من هـذه العـمارة، أواصـل تـركيـز قـوالب الإسمنت المسلّح في أماكنها، وأواصل تركيز الوعي بالحقّ المسلوب وإني سعيد بما تحقّق. غـدا ينتهي كلّ شيء : غدا نضـع حـدًا للعسف. أنـا الصّامت حسن العيّاري ، لا أقبل الضّيم. لن أسمح لسعيد الشابيّ بالمتاجرة بعضـلاتي . رفـاق الـدّرب يتصدّون مثلي لنَهَمه . غدا سنقف صفًا واحدا لتبديد أوهامه. إنّه يـريـد أن يلتحق بكبار الباعثَين دائسا على صدورنا. لن يتسنّى له ذلك مـا دام هنـاك أطفال في حاجة إلى الرّغيف . لقد رتّبنا كـل شيء : سيشعـر أنّ الأمـر تغيرّ، وأنّ هؤلاء الرّجال الصّامتين لم يعُدْ في مقدورهم تحمّل المزيد من التّجويـع والإذلال . سيفهم بدون خُطب، بدون عرائض : الشّارة الحمراء أفصـح من كلّ كلام . الصّمت خنجر حادّ، ينغـرس في الصّدر، يحـرّك الهمم . الصّمت سلاح مكين، سلاح العاجز، سلاح من لا سلاح له. لن نكون من العاجزين: إنيّ أراهُ من هذه القمّة الشاهقـة، سعيـد الشـابيّ، في حجم صغير الـدّواب، يتحرّك في عصبيّة، يتنقّل بين مختلف الأعـوان. غـدا لن يستطيـع التحـرّك. سيُغمَى عليه من الدّهشة، سيُنقـل على جنـاح السرّعـة إلى إحـدى المصحّات لإنعاشه . ستكون الصّدمة قوية جداً . ستكون المفاجأة ساحقة، لن يصـدّق أنّ الصّامت حسن العيّاري يتكلّم في الخفاء، يوقظ الهمم، يصـرّ بالحقـوق. إنه الآن يشيّع بصرهُ إلى قمّتي هذه، مُعجبا بشموخها، راغبا في المزيد، يطربه هدير الآلات، ويروقُه منظر الطّوابق تتشكّل.. إنّه ينظر إليّ أنا بالذّات نظـرة انتصار.. واحتقار.. إنـه يعلم أن أولى محاولاتي قـد فشلت، لكنّه لا يعلم أنّ

رفاق الدّرب تسرّبت إليهم ناري. لا يعلم أنهم أقسموا البارحة أن يكونوا صفًا واحدا . كانوا فيما مضى غافلين، خائفين. اليوم زال الخوف وحلّت الطمأنينة ...

كان حسن العيّاري يحدّث نفسه بمثل هذه الهواجس، دون أن يكفّ عن إثبات قوالب الإسمنت في مواقعها . يجذب إليه الأسلاك الحديديّة، ويفكّ المحاجن، ويسوّي القوالب، ثم يعيد الأسلاك إلى الفضاء، فتنزل المحاجن بسرعة، ثمّ تصعد من جديد مُثقّلة بالقوالب الصلبة. كانت خوذته مشدودة إلى رأسه، ونظّارات سميكة تقي عينيه من الغبار المتناثر في كل مكان. وكان يبدو في بدلته الزّرقاء وجزمته المصفّحة وخوذته وشاربيه الغليظين كالجنديّ في ساحة الوغى . كان منتصبا على خشبة عريضة مشدودة إلى نقطتي ارتكاز، يُطلّ منها على الطّوابق المنجزة ويبلغ منتهى بَصَره أرضيّته الخطيرة، فيمسح أكداس الرّمل والحجارة والحصباء، والشاحنات والجرّارات والأنابيب المختلفة الأحجام، ورؤوس العملة يدبّون دبيب النمل، كلٌّ منهمك في ما خُصّص له من عمل، كلّ يسعى إلى غايته ...

وفجأة ...

سمع حسن قزقزة الخشب تحت قَدَميه، ثم تحرّكت الألواح، ومّا هي إلاّ برهة حتى كان يدور في الفضاء ويهوي إلى أرضيّة الحظيرة ، فتدور أكداس الرّمل والحجارة والحصباء، والشاحنات والجرّارات والأنابيب تمتزج، وصيحة تنبّه العملة، فيضجّون ويتنادون ويدركهم الذّهول، ويقفون مشدوهين يشاهدون سقوط الكتلة البشرية من السماء. ثم يرتطم اللّحم بالمعدن، فيحمر المعدن، ويدرك النّبع الحجر، فيُكْسَى حمرة قانية. ويسود الصّمت ... برهة .

ثم تعالت الأصوات وتمازجت . سيارة اسعاف . ضجيج العملة . الفاجعة . القهر . الإحتجاج . الإحتجاج . حي ميّت، مّيت ينظر ولا يرى. يحسٌ ، يتّهم، يصمت. يشير بالعينين. حادث شغل. حسن بالذّات ! الصّامت، النّاطق . حيّ ، قتيل. من دبّرها؟ سعيد ممتقعٌ لونُه . سعيد شقيّ. مرتاح . الخوف . لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الشكّ . لماذا حسن بالذّات؟ سقط حسن العيّاري . لم يعد يفصلنا عن اليوم الكبير غير ليلة واحدة. قُضي الأمر . الهزيمة . الشكّ . حادث شغل. مستحيل. في الأمر لغز. العدالة . التحقيق. انتهى التّحقيق . سعيد لا يعرف شيئا . لا أحد يعرف شيئا. حادث شغل عادي : لم يتحكم حسن في توازنه . نظر إلى أسفل، فَفَقَدَ وعيه فسقط. مستحيل . حسن لا يفقد وعيه، ولا توازنه. حسن جنديّ

شجاع، متعود، مجرب. التّحقيق من جديد . التّضليل من جديد. سعيد بريء. كلّهم أبرياء . المسألة واضحة ولا أحد في إمكانه أن يثبت شيئا. تحفظ القضية . حاكم التحقيق تعوّد مثل هذه الحوادث. وبعد، ألم يثبت الطّبيب الشرعيّ أن الموت ناتج عن سقوط الجسم من ارتفاع يقدّر بثلاثين مترا ؟ حجّة دامغة. انتهى التحقيق . الشهود لم يشاهدوا شيئا. بل رأوا كتلة بشرية تدور في الفضاء ثم ترتطم بالأرض، فيحمرّ المعدن، ويحمر الحجر. سعيد مطمئن . متأسف . غير حزين . الحزن لأطفال حسن، وامرأة حسن، وأمّ حسن. لن يتوقّف العمل طويلا . لا شيء يمنع من تحقيق الحلم. يجب فقط الاحتياط لموكب الدّفن حتى لا ينقلب إلى تمرّد . لعلّ الغضب يشعل النّار في الصّدور، وفي الحظيرة، فتتبخّر الأحلام، لا . لن يحدث هذا. سيُدفن حسن العيّاري في جندوبة، في تراب الجذور . هناك، بعيدا، لن تبلغ ألسنة اللهيب حظائر سعيد. لكنّهم سيعودون، رفاق الدّرب . سيبحثون عن حجج الإضمار، سيزرعون الشك، .. والحق.. والغضب. النّار . كلّ شيء له حلّ.. سوى النّار . النّار تأتي على كلّ ما في الحظيرة، الشّاحنات والجرّارات وخالطات الإسمنت وعلى الأسلاك والأنابيب وأكياس الجير وحتى على الآجرّ . النّار تحوّل الجدران إلى أنقاض، والسّقوف إلى أشلاء، والنّوافذ إلى هشيم، والأبواب إلى رماد، والحلم إلى كابوس. النّار أكول جبّار لا يشبع . سعيد الشابيّ لا يشبع. يجمع يجمع ولا يشبع. الصّكوك تلو الصّكوك . تسبقة . تتمّة. والمفاتيح لا تزال عنده، والأقفال لا تزال في علبها تنتظر نهاية الأشغال. متى تكون النهاية؟ كابوس ! النّار في الصّدور فقط لا تتجاوزها إلى مملكتي . إنهّم جبناء. الفعل ليس من شأنهم. الفعل من شأني أنا وحدي . هم مجرد دُمًى تتحرّك بمشيئتي . أنا محرّك الدّمى. أنا رافع الأثقال . إنهّم جبناء، لا يُقدمون على شيء لأن شبح الجوع يُطاردهم . إنهم لا يتحمّلون الجوع، وحتّى إن تحمّلوه فإنهّم لا يصبرون على رؤية أبنائهم وبناتهم يتضوّرون ، ينتظرون الرّغيف. لذلك فإنهّم سيعودون بعد الدّفن كالخراف، أذلاّء، خائفين . سيستأنفون العمل منذ الصباح الباكر . المسألة في منتهى الخطورة : مسألة لبن للرّضيع، ودواء للأمّ العاجزة، وتبغ للأب القاصر، وعودة إلى الأرياف الجرداء القاسية. سيعودون وكأنّ أحدًا لم يسقط من تلك القمّة الشاهقة، ولم يرتطم بالأرض والحجارة، ولم يحمرّ المعدن. كأن لم يكن شكّ ولا اتهّام ولا صمت . سيروحون أسودًا ويعودون نعاجا. إنيّ واثق من ذلك . ألم يعودوا من قبل؟

عادوا جميعا هذه المرّة أيضا. ما عدا حسن . عاد إلى تراب الجذور. كان يوما مشهودا في تراب الجذور. تحوّل الأصحاب إلى هناك لحضور الدّفن .

ودّعوه بالغضب والدّموع والشّكوك . يمين الأخرس في صدره . كـانـوا هم الخُرس، ينظرون ويتألّمون ولا يتكلّمون . حادث شغـل عـادي، مستحيـل . المقبرة شاسعة، تبدو خالية، مازالت تتّسع للعديد العديد. الأشجار العملاقة تُظلّ قبورا خربة، أُهملت منذ عشرات السّنين، لا يُعرف سُكّانها ولا يزورها زائر. قبور متداعيـة، لا لـون لهـا ولا شكـل . مجـرّد حُفـر تغطيهـا لحُود متشقّقة . شيّعه الأصحاب بالصّمت وشيّعـه الأطفـال بـالعـويـل والنسـاء بالنّحيب . نحيب مُفجع يشقّ الفضاء ويلاحق الموكب ويصطدم بـالأسـمـاع ثمّ يستقرّ في الصّدور، صدور الخُرس. لم تجِد أوامر الـرجـال الصـارخـة بالسكوت، فالعويل يُلاحق، يطارد، يُشعـر بهـوْل الفـاجعـة وينشر الحـزن العميق. كان النّاس يتزاحمون لحمل النّعش بالتّناوب . تمتدّ الأيدي وتستقرّ الألـواح على الأكتـاف والمـوكب يقترب بنفس السّرعـة من المقبرة دون أن يتوقّف السّير لحظة، والرّجال في صمتهم يتقدّمون . جسم يدور في الفضـاء ثم صيحة ثم يرتطم بالأرض. المقبرة شاسعـة كـأنهـا خـاليـة والأشجـار العملاقة تحرّك الرّيحُ أغصانها فتتمايل بدون عويل. العـويـل بقي في بيت حسن . ولعلّه كفّ بعد أن غاب الرّجال عن الأنظار .

هذه القبور البيضاء تشهد أن الدّموع انهمرت من أعين رجـال مـا أرادوا لها ان تنهمر. لكن فاض الحـزن وضـاق الصّدر وصعب هـول الفـاجعـة، فتنفّس الأصحاب لوعة ثم سكنوا وعادوا .

عاد الخِراف إلى الحظيرة ...

لكن ....

محمود طرشونة

